القاهرة الخداعة

بقلم الاستاذ الأديب سيد قطب

ما أكذبك أيتها "القاهرة" وما أشد خداعك، لمن لا يعرفون منك إلا بعض جوانبك البراقة!

إنك لتلوحين — أيتها القاهرة — جميلة فاتنة، سعيدة باسمة، غنية ممتعة، راقية متحضرة، تفوح منك العطور، وتتفتح فيك الزهور، وترن الضحكات العذبة في جنباتك وتتخايل مظاهر النعمة على سيمائك فتتم الخدعة، وتنطلي الكذبة ... ولكن على من لا يعرفونك لا يعرفونك ولا يفتشون!

ولكنك أيتها القاهرة — في حقيقتك قبيحة شائهة، شقية بائسة، فقيرة معذبة، جاهلة متخلفة، يفوح منك الأسى وينضح عليك الشجن، وتدوي الصرخات الأليمة في ربوعك وتكمن الآهات الوجيعة في ضلوعك، وتتكشفين عن سحنة كئيبة مريضة، وجثة دميمة سقيمة لم يكشف عنك أول ثوب من ثيابك، ولم يفتش في ثنايك وأحنائك.

أنت أيتها القاهرة — جميلة هناك في الزمالك وحارتك سيتي وندى وشارع الهرم وسليمان باشا، المعادي وحلوان ومصر الجديدة وحلمية الزيتون. إلى آخر مفاتنك ومباهجك حيث تعيشين هناك في قصور، وحيث تسهرين مع باريس وفيينا وجنيف، وحيث تصرين ألف ليلة وليلة، وحيث يليك الحراء المسحورة، وكؤوسك المترعات المتوهجة .. هناك حيث تلمع نشوة مشعشعة برأسك المفتون، ولا تشعرين بكل ما في جسمك من لامبالاة!

وأنت — أيتها القاهرة — شائهة زرية، جائعة مريضة، شقية منكودة. هناك في المذابح وزنهم ودرب البرررة وحارة أبو خاف، ودرب قرودي ودرب عجور وخوش قدم والمغربين وطيبون ... إلى آخر مذابحك ومقذرك، حيث تعيشين هناك في مغور لزوج وشعب لأحذاف ومسقع لصين ومجاهل التاريخ!

إن رنين الكؤوس — أيتها القاهرة — وعربدة السكارى، وقهقهة السعداء، وضجيج السيارات الفخمة، ووهج الأضواء المنبعثة يوم كانت فيك أضواء، ليغطي على أنين المرضى وصرخات الجياع ودموع المحزونين وآلام البؤساء، وظلام القبور التي يعيش فيها أولئك المنسيون!

اسمعي أيتها القاهرة الخادعة المخدوعة بعض ما يقوله فيك رجال لا مطعن في نزاهتهم ولا ريب في إخلاصهم، ولا شبهة في تحريهم الصدق فيما يقولون، وتقصد فيما يصورون..

اسمعي لرجل الكريم النبيل "أحمد حسنين باشا" رائد "جمعية الرواد" تلك المنشأة المتواضعة الرفيعة لصامتة العاملة، تلك التي يحاول بها مع زملائه الكرام المجهولين علاج بعض ما في جسدك المؤوف من دمامل وبثور! إنه يقول:

"أمنا من لم يعش حيا بلديا من أحياء القاهرة ؟ ماذا إذن فى مثل هـذا الحى نرى ؟ إنا لنقع على حياة رخيصة فردية مظلمة منحطة. نرى طرقا ضيقة قذرة ، أزقة مبتلة متسخة، فضلات ملقاة على الجانبين ، مساكن كالكهوف ضيقة ضئيلة منكمشة ، مآوى متداخلة بعضها فى بعض كأنما أعدت لطائفة من الأشباح ، ليس فيها منفذ لشمس أو مهرب لهواء رجالا خائرين كأنما يستبطئون مقدم الموت، العامل فيهم أداة سقيمة صماء لا رأى له فى شىء ولا يفكر إلا فى أفق أولى غاية فى الضيق ، والمعطل منهم لائذ بالمقهى ، يقضى يومه بين أن يسمع شرا أو يأتى شرا أو يفكر فى شر . رجال قنع خاملون ، نهشت المخدرات هياكلهم نهشا ، نامت فيهم كرامتهم ، وضاعت منهم كبرياؤهم ، وانتفى فيهم كل معنى من معانى القومية ، لا نخوة لهم ولا خلاق، تضيع حقوقهم فيستنيمون، وينال من عزتهم فلا يشعرون، ما أيسر أن يضيمهم مضيم ، وما أسهل أن يستهين بهم مستهين، لا يدركون أنهم شىء يجب أن يحسب له حساب ، ولا يقدرون لأنفسهم وزنا فى نظر الناس ، لأنهم لا يقيمون لأشخاصهم هذا الوزن فى نظر أنفسهم .

"أولئك هم رجال الحى . أما نساؤه فقد طمس عليهن ، فشاعت القذارة فى أنفسهن وبيوتهن وأولادهن . فى هذا المحيط المظلم وفى تلك البيئة التى أفسدها الجهل والأمية ينشأ الطفل مهملا متأثرا بأخلاق هـذا الوسط ، وتنشأ البنت محملة تراث هذا العرف الاجتماعى السيئ. والأطفال الذين تتولى أمرهم وهم صغار ، هم الذين يتولون أمر أبنائهم وهم كبار ، وبنت اليوم هى أم الغد ، والأم هى الأمة" .

تلك أيتها القاهرة — صيحة أحمد حسنين باشا . فاسمعى كلمة حافظ عفيفى باشا ذلك الطبيب الاقتصادى الحريص على ألفاظه المقتصد فى تعبيراته ، الهادئ فى تفكيره ، المحقق فى تصويره . إنه يقول :

"لقد اشتغلت بالطب عشرين سنة فى مدينة القاهرة ، ولا أظن أن هناك ركنا من أركان العاصمة المجهولة لم تطأه قدماى ، ولا يوجد شارع أو حارة أو زقاق فى مدينة القاهرة إلا دخلت بيتا فيه لمعالجة طفل مريض . ولذلك رأيت ما لم يره غيرى فرأيت عجبا : رأيت الأزقة التى لا تتسع لأكثر من شخص واحد يسير فيها ، والتى يمكن السكين على جانبيها أن يقفزوا من بيت إلى بيت بكل سهولة . دخلت بيوتا تنبعث منها الروائح الكريهة مهلكة وتعلو جدرانها الرطوبة صيفا وشتاء، ولا شمس ولا هواء ولا نور ينفذ إليها . دخلت منازل جدرانها وسقوفها من صفائح البترول القديمة ، تسكن الحجرة الواحدة أسرة مكونة من الأب والأم والأولاد ، ويعيش معهم إحيانا بعض الحيوان أو الطيور المنزلية. ولست أبالغ فى هذا الوصف ، فليس من الصعب على كل من يريد التأكد من حقيقة الأمر أن يذهب إلى عرب اليسار أو عشش الترجمان ليرى بعينيه ما أصف الآن ، بل أستطيع أن أدله على

حى من أحياء القاهرة لا يبعد إلا بضعة أمتار عن شارع قصر العينى فإنه يجد فى هذا الحى منطقة يصعب أن نرى مثيلها فى بلاد الكنغو أو فى أقاصى السودان ، يوجد " تل زينهم " بمنظره المدهشة ، وحاراته التى لا يزيد عرضها عن المتر، ومنازله المتداعية للسقوط والمبنية بالطين والصفيح ونحو ذلك .

وتل زينهم الذى ضرب به الدكتور حافظ عفيفى باشا مثلا للأحياء القذرة والذى لا يبعد على حد قوله إلا بضعة أمتار عن شارع قصر العينى ، وصفه الأستاذ محمد عبد الكريم فى جولة له بالقاهرة المجهولة فى " مجلة الشؤون الاجتماعية " وصفا صادقا رهيبا تقشعر لهوله الأبدان وهو يقول :

" وارتقينا ربوة عالية ، فإذا بنا نشرف على واد فسيح اجتمع له الماء والهواء وسعة الصحراء ، ولكنه ماء آسن راكد ، وهواء فاسد خانق ، وصحراء مترية ليس فيها سوى الركام والأنقاض . هذا هو حى المدابغ ، وإن شئت فقل هو حى الوباء ومصدر الأمراض والأدواء . وما ظنك بمكان لا ترى فيه إلا كل قبيح ولا تشم إلا كل كريه ؟ سرنا فيه بين أوحال وقنوات تجمع فيها ماء المدابغ المتخلف من تنظيف الجلود وظل بها حتى زاد فسادا وملئ وباء.

" وانتقلنا إلى مدابغ الحور والحور جلود الماعز وما شابهها فكادت المياه المتخلفة أمامها تعوقنا عن دخولها لولا تضحيتنا بنظافة احذيتنا وجواربنا فى سبيل بلوغ غايتنا .

دخلنا المدابغ فهالنا ما رأيناه بها : صبية ورجالا عرايا لا تستترهم إلا خرق صغيرة يعملون وقد اختلط عرقهم بنفايات الجلود ودمائها ، غائصين فى الماء الآسن إلى سيقانهم.

" وتقدم لنا صاحب المدبغة ، فسألته عن حال العمل فقال : " معدن... أحسن ما نحن أصحاب المدابغ . أجور عالية وصحة كاملة وساعات شغل طبق نص القانون ، انظر إلى الأجزخانة التى عملناها تنفيذا لأمر مصلحة العمل . وأشار إلى صندوق صغير به بعض زجاجات صغيرة وقليل من القطن .

" يشتغل عمال المدابغ فى الوضع الذى وصفته عشر ساعات فى اليوم ، وأكثرهم لا يتقاضى أجرا ثابتا ، بل يعملون بما يسمونه " الطريحة " فترى العامل كالآلة يعمل دائبا مستميتا لإنجاز أقصى ما يمكن ، وهو رغم ذلك لا يكاد يحصل على كفافه إذ لا يتجاوز أجر الرجل فى المتوسط ستة قروش فى اليوم ، والغلام قرشا واحدا .

" وقد سألت البعض كيف يقوى العمل على احتمال الجو الخانق الذى لم نطقه لحظات ؟ فقال " البركة فى الشاى والنشدر " إذ كلما أغمى على أحدهم عمل على إفاقته بالنوشادر وأعطى قليلا من الشاى لينهض ويعود إلى مغالبة الموت ومواصلة الكفاح فى سبيل العيش .

" على أن هناك فريقا من العمال يعملون فى ما هو أبشع مما رأينا وأشنع . إذ يقتضيهم عملهم أن ينزلوا عراة فى أحواض الجير ويمكثوا فيها طول يومهم . ولسنا ندرى كيف يقوى هؤلاء المساكين على احتمال نار الجير الكاوية ؟ "

أيتها القاهرة الخادعة المخدوعة . أسمعت بعض ما يقال فيك ، وعرفت بعض ما أنت به مبتلاة ، إنى على يقين أيتها القاهرة أنك لم تكونى تشعرين بهذه الأدواء . إن السعداء فيك لم يعرفوا ولن يعرفوا شيئا عن هذه الأحياء إن طرقاتها الضيقة لا تتسع لمرور عرباتهم الفخمة فكيف إذن يعرفونها ؟ وإن روائحها الكريهة تؤذى مشاعرهم الرقيقة فكيف إذن يقصدونها ؟ إنك معذورة أيتها القاهرة لأنك مشغولة بنشوة الكؤوس والعجيج ، وهم معذورون لأنهم فى شغل عن هذا بالقصف والعجيج .

ولقد سمعت أخيرا — أيتها القاهرة — أن وزير الصحة هالته هذه الحال ، ونى للمكوبين التعساء فى أحيائك الفقيرة ، فألف لجنة برياسة مفتش صحتك لبحث مشروع يرمى إلى إنشاء متنزهات فى أنحاء على بعض الأراضى الفضاء والخرائب التابعة لوزارة الأوقاف ، وأن عدد الأماكن التى اختيرت فى مختلف أنحائك بلغت ثلاثا وأربعين قطعة تبلغ مساحة أصغرها ثمانية آلاف متر . وأن نفقات المشروع تقدر بحوالى ستين ألف جنيه .

هذا ما سمعته نقلا عن صحيفة الأهرام ، وإنى لأخشى أن تمضى بهذه الستين ألفا من الجنيهات أو ببعضها تحلقين به رئات تنفس بها هذه الأحياء المختنقة ، فعهدى بك بخيلة ضنينة بكل قرش ينفق فى سبيل الأشقياء المحرومين ، كريمة سخية بالمئات والألوف فى سبيل السعداء المحظوظين .

وإنى لأخشى مرة أخرى أن يلجأ أولئك المساكين الذين تهدم أكواخهم لتنشأ على أرضها المتنزهات ، إلى أرض أخرى يبنون عليها الأكواخ ، وإلا فأين يذهبون أيتها القاهرة الفتانة ؟ أيذهبون للإقامة فى الزمالك وجاردن سيتى وحلمية الزيتون ؟

من يدرى أنك لا تفكرين هكذا ؟ وأنك لا تعجبين أشد العجب لهؤلاء الذين يبنون أكواخهم بالصفيح والطين . فلم لا يتخذونها من المسلح والمرمر والجرانيت ؟ وهؤلاء الذين يأكلون الفضلات ويطعمون الخبز الحاف . فلم لا يأكلون "البفتيك والكافيار" ولا يطعمون "البفلاوة والجاتوه" ؟ إنهم مجانين ! أى والله أيتها القاهرة — مجانين .

* * *

اسمعى — أيتها القاهرة — إنك لتحسنين صنعا لو أفقت من النشوة لحظة ، وأفاق معك المحظوظون ، وإن فعلت فقولى — بحقك — للسعداء أن يستمعوا مرة واحدة للأشقياء . قولى لهم إن العالم كله يثوب إلى رشده ، ويفيق على صوت المدافع وأزيز الطيارات ، فناشديهم أن يجاروا هذا العالم وهو يثوب إلى الرشاد .

قولى لهم : أو قولى للحكومة تقل لهم : ان كانوا لا يستمعون إلا لصوت الحكام !

سيد قطب